لقد استبشر الفلسطينيون بوعود الحلفاء، وأنضمّ شبانهم الى قوات فيصل بن الحسين للقتال الى جانب بريطانيا وفرنسا[١٢]. وكان ذلك أملاً في نيل الاستقلال؛ فيما قابل الحلفاء تلك الآمال على النحو المعلوم من الانكار والغدر. ثم ارتكبت بريطانيا جرماً بالغاً في حق الفلسطينيين حين أصدرت وعد بلفور وتجاهلت وجودهم وخانت مواثيقها مع العرب حولهم[١٣]. ويرى الفلسطينيون ـ الى جانب ذلك ـ أن بريطانيا كثيراً ما حاولت طمأنتهم بكل الوسائل، بما في ذلك القاء المنشورات، للابقاء على تعاونهم الى جانب الحلفاء[١٤]. وبعد انتهاء الحرب، لم تهمل السياسة البريطانية جانب الغدر. فقد عهد الفلسطينيون حنث بريطانيا بوعودها أكثر من مرة. ففي أيار (مايو) ١٩٣٩، ألقى مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني خطاباً ذكر فيه كيف أن المستر ماكدونالد أقسم له بشرفه وشرف بريطانيا، العام ١٩٣٠، على أنه سينفّذ توصيات لجنة سمبسون التي أنصفت، في توصياتها، الفلسطينيين في ذلك العام، وكيف أن ماكدونالد، نفسه، هو الذي ألغى الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠، والذي صدر على أساس تلك التوصيات[١٥]. ويتشابه مع هذه الواقعة الاسى الذي عبّر عنه الفلسطينيون نتيجة تراجع الحكومة البريطانية عن سياستها التي قامت على أساس الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩، على أثر استنكار الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية لذلك الكتاب[١٦].

وقد تكون السياسة البريطانية العامل الأهم في تكوين جانب، أو ملمح، عدم الثقة في الصورة الاوروبية عند الفلسطينيين؛ وذلك كأثر مباشر لكثرة الاحتكاك الفلسطيني ـ البريطاني. غير أن ذلك لا ينفي انسحاب هذا الملمح على القوى الاوروبية الاخرى، بمستويات مختلفة. وفي ذلك تذكر المؤلفات الفلسطينية توقف السلطات الفرنسية في كل من سوريا ولبنان عن تساهلها مع ثوار فلسطين ضد بريطانيا، بعد تداعي نذر الحرب العالمية الثانية. وقد علّق أكرم زعيتر على تلك الواقعة بأنه «كان من الطبيعي أن تكون بريطانيا وفرنسا في صف واحد»[١٧].

لقد بلغ الامر بالفلسطينيين، من حيث عدم الثقة بالسلوك الاوروبي تجاههم، أن قارن الحاج أمين الحسيني، في كتاباته بعد عام النكبة، بين «وعود أوروبا الزائفة والعهود العربية الاسلامية التي لا رجعة فيها ولا نكوص، مثل العهد العمري لنصارى القدس ويهودها في العام الخامس عشر للهجرة»[١٨]. وهكذا وضع الحسيني صورة العربي الموثوق به في مواجهة الاوروبي الغادر.

العنف والارهاب والعدوان

توجد نماذج هذه الملامح من الصورة الاوروبية في معظم مصادر تاريخ التجربة الاستعمارية في المنطقة العربية؛ في مصر (حادثة دنشواي)، والمغرب العربي (فرنسا وممارساتها في الجزائر بوجه خاص، وفي ليبيا (الايطاليون واعدام عمر المختار)، وفي سوريا (قصف القوات الفرنسية لدمشق). وقد برز العنف الدموي الاوروبي في فلسطين بطريق الممارسات البريطانية في أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، حيث كانت السلطات البريطانية تقوم باتخاذ اجراء الاعدام ضد الفلسطيني لمجرد حيازة مسدس، في الوقت الذي درّبت العصابات الصهيونية ويسّرت لها سبل التسلح[١٩]. ومن المعتاد أن يشير الفلسطينيون الى قوانين الطوارىء البريطانية التي سرى مفعولها في فلسطين حتى افتتاح المشروع الصهيوني العام ١٩٤٨، وذلك في دليل ليس فقط على الارهاب البريطاني، وانما، أيضاً، على أساس أن التعامل الصهيوني مع الفلسطينيين في الاراضي المحتلة يتمّ بمقتضى تلك القوانين حتى الوقت الراهن. وبذلك يضحي نموذج الارهاب البريطاني بمثابة المدرسة التي يرسخ درسها في العقل الصهيوني وضد الفلسطينيين، وباستمرارية تلفت النظر. فنسف